

بفضل الإسلام أصبحت

اللغة العربية لغة عالميين

بأستاذ محمد أبو الفرج العشي

محافظ المتحف الوطني بدمشق
استاذ محاضر في كلية الشريعة
جامعة دمشق

- ب — ما هو اثر الاسلام في اللغة العربية .
- (1) توحيد اللهجات وبخاصة عندما انتشرت ، ولقد انتشرت موحدة بلغة القرآن الكريم .
 - (2) الثروة العظيمة من المفردات الجديدة التي استعيرت من اللغات الأخرى ، والتي اشتقت من أصل اللغة لتساير الحركة الكبيرة ، والتي نحتت وصقلت وربما ابتكرت لتعبر عن المجال الحيوي الجديد .
 - (3) القرآن الكريم مصدر ثابت راسخ ، يرجع اليه للتأكد من سلامة اللفظ وبناء الجمل وفصاحة المعنى وضبط النحو والصرف ..
 - (4) صقل الاسلوب ، حسن الاداء ، التعبير عن الخيال والمشاعر .. كل ذلك حصل للغة العربية بسبب انتشارها بفضل الاسلام بين الاقوام الأخرى التي تأثرت منها وأثرت فيها .
 - (5) استنباط قواعد اللغة والاملاء والنحو والصرف .. ضبط بحور الشعر ، ملاحظة الفروق في المعاني (فقه اللغة) .. الخ هذه الأبحاث اللغوية تمت على ايدي العرب والعلماء الاعاجم . وكان الاعاجم بحاجة اليها ، فعنوا بها ، وحسنوها ، وطوروها .
 - (6) تقدم فن الكتابة وتنوع الخطوط وانتشارها .
 - (7) كثرة عدد المتكلمين والكاتبين باللغة العربية من الاعاجم ، فهم لو لم يدينوا بالاسلام لما أحبوا لغة القرآن فنكلموا بها وكتبوا بها وافتخروا بها . لا ننسى ما قاله البيروني : « انه لاحب الي ان اهجي بالعربية من ان امدح بالفارسية » .

1 — التلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية :

أ — اللغة العربية موجودة قبل الاسلام تتكلمها القبائل العربية في الجزيرة العربية وفي اطراف العراق والشام . لو لم يظهر الاسلام بين العرب ، فماذا كان يقدر لهذه اللغة ان تكون ؟ :

(1) تظل اللغة العربية متعددة اللهجات بتعدد القبائل ، وهذا ما ينتقص من شأنها كلفة .

(2) تظل اللغة العربية لغة محلية تؤدي ما يناسب البيئة والحاجات المحلية .

(3) تظل قاصرة في التعبير أي ان الاسلوب الأدبي يبقى جانا : الجمل متقطعة منفصلة لا ترابط في الأفكار ، الخيال والتصوير فيها ضعيف ، الكلام جزل ، والمفردات غير منتقاة : أعني لو ظل العرب منكشيين في جزيرتهم لظلت اللغة العربية تخضع الى عوامل التفتت والتقهقر ، واذا أحسنا الظن نتوقع لها الجمود .

(4) لو لم يات الاسلام ، وقدر للعرب ان يكونوا دولة أو ما شابه ذلك ، وأن يخرجوا غازين من جزيرتهم ، فهل كان يقدر لهم ان يرسخوا اتداهم في الاراضي التي يحتلونها ، اذا لم يكن لديهم رسالة روحية ذات مثل عليا ، تجمع ما بينهم من جهة ، وتقنع اهالي البسلاد المفتوحة بالأذعان لهم . أعني ان العرب لو انساحوا في الارض بدون رسالة لكانت حركتهم اندفاعا مؤقتا ينشد الغنينة ، لا يلبث ان ينكسر وأن يتمزق الشبل ، ولما كتب للغة العربية الانتشار .

8) أصبحت اللغة العربية بفضل الإسلام لغة عالمية ، كتبت بها العلوم والفنون وأضحت قادرة على التعبير في جميع المجالات .

9 — لو لم يدعم الإسلام اللغة العربية لما بقيت إلا في مجالات ضيقة وفي حالة تهقر .

10) لو لم تنتشر اللغة العربية انتشارا واسعا بفضل الإسلام لما اهتم الآن العلماء المحدثون هذا الاهتمام باللغة العربية وآدابها وتواعدها .

*

2 — لنجيب عن مدى ارتباط وتلازم انتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية . نسأل أنفسنا : « ماذا حل باللغة العربية عندما ضعف الإسلام في النفوس ؟ »

1) عندما ضعف الإسلام في نفوس الحكام أسعوا الاستعمال ، فنشبت عليهم الثورات ثم حدثت الانفصالات عن جسم الدولة الواحدة ، فتفتتت القوى وطمع الطامعون من خارج المملكة نعددهم منهم : الزنج ، المجرس (ومن ورائهم الحركات المنحرفة) الصليبيون ، الموغول ، البعثات التبشيرية ، الاستعمار ، الصهيونية

كلما قوي الإسلام في النفوس تعود بعض أجزاء البلاد العربية والإسلامية إلى الاتحاد أو الوحدة فتدفع الخطر مثال ذلك : جهود الزنكيين في توحيد القوى ضد الصليبيين ثم جهود الأيوبيين ثم المماليك .. وعندما يعود الضعف للإسلام في القلوب تنفرط القوى ويقوى أمل الطامعين في التغلب . وأنا نجد من خلال ذلك نهوض اللغة العربية بنهوض المسلمين وتضائلها بتخائلهم . لو أننا تتبعنا في التاريخ وتاريخ الأدب مراحل ازدهار اللغة العربية والأدب العربي ، لرأيناها في أغلب الأحيان تطابق مراحل عز الإسلام ووحدة العرب والمسلمين تحت لواء الإسلام .

لا يخلو الأمر طبعاً من شواذ ، لكن النتائج العامة لا تؤخذ من الشواذ .

2) في عصر الجمود والانحطاط منذ القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثانية ماذا حل باللغة العربية في بلاد العرب وفي البلاد الإسلامية ؟

— المستعمر في البلاد العربية وبخاصة في شمالي إفريقيا حاول في مدى سنين طويلة أن يقضي على اللغة العربية ويحل محلها لغته الأجنبية ، وحاول أن يضع من قيمة اللغة العربية ويصعبها بأنها غير خليقة بمسيرة الحضارة وتطور العلوم .. الخ .

لم ينجح الاستعمار بمحاولته في الأوساط الإسلامية ، ونجح بعض النجاح في الأوساط غير المتدينة . لماذا ؟ — لأن الإسلام حفظ لغة القرآن ، ولأن القلوب المؤمنة لا يمكن أن تقنع بأن لغة القرآن السماوية لغة غير جديرة .

— المستعمر في البلاد الإسلامية سواء أكان محتلاً لها أم صاحب نفوذ فيها حاول أن يقضي على اللغة العربية كلفة فكر ودين . نجح المستعمر إلى حد بعيد في مخطئه ، لكن أثره كان ضعيفاً في كل بؤرة إسلامية حق . فما زال أثر المستعمر من مكان ، إلا وارتد احترام اللغة العربية إلى النفوس بفضل رسوخ الإسلام .

— نحن الآن أمام تجربة جديدة في يقظتنا الحاضرة وربما في نهضتنا المستقبلية كعرب ومسلمين . فبالقدر الذي نعود فيه إلى أنفسنا ونعود إلى الحق ، نجد أنفسنا أقرب إلى الاتحاد والوحدة ، وبالقدر الذي نكسبه في هذا المضمار نصبح أعزة أتوياء ، ويقدر ما نكون أعزة ، فإنا نرفع من قيمة لغتنا في الداخل والخارج ، ونصبح موضع اهتمام وتقدير الجميع .

أجوبة عن الأسئلة الإيضاحية :

1 — لولا الإسلام لما تاتي للغة العربية ان تنتشر في العالم .

— ضمنت الجواب على هذه النقطة فيما سبق .

2 — لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الإسلام .

— يصح هذا القول إذا أتمنا الكلام فقلنا « لما انتشر الإسلام في البلاد العربية » لأن العرب يعشقون لغتهم . وأنا لنذكر بعض الأخبار في بدء الحركة الإسلامية التي تقول ان المشركين الذين جاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يسترقون السمع فيطربون لتلاوة القرآن ، فبعضهم كان يلين قلوبهم بسرعة فيسلموا ، وبعضهم تظنى عليهم مصالحهم وأحقادهم فيصدوا أنفسهم عن الاستجابة .

أما تعميم هذه الفكرة على الشكل المذكور أعلاه ، فإنه أمر قد يدرك ويعتقد به قلبياً لدى المسلمين المؤمنين بعد فهم القرآن والإسلام عن طريق الاحتكاك وحسن المعاملة وتقليد القدوة المتمسكة بالمثل العليا الإسلامية . ولكن لا يمكن التذليل عليه واقعياً . كيف يمكن أن نتنع بذلك الاتوام غير العربية ؟ ان المسيحيين العرب والمستعمرين من سكان بلاد الشام مثلاً عربوا كتبهم المقدسة ومارسوا

طقوسهم بها (بعضهم احتفظ لبعض الطقوس بصلوات تتلى باللغة القديمة) ظلوا على دينهم حتى الآن ، فلو كانت اللغة العربية كلفة للقرآن هي السبب في انتشار الاسلام ، لما بقي المسيحيون على دينهم ، ولا اعتنقوا الاسلام .

كيف يمكن ان يكون ذلك صحيحا بالنسبة للفرس الذين هم في الاصل لا يقيمون وزنا للعرب ، وماذا كان يدرهم بأهمية اللغة العربية حتى يقبلوا الاسلام بسببها .

3 — يقوى الوعي والوازع الديني او يضعف تبعاً لها يعترى لغة الضاد من قوة وضعف .

— الصحيح ان اللغة تتوى بقوة القوم الذي يتكلم بها . ويقوى القوم بقوة المبادئ الروحية والخلقية والاجتماعية التي يتمسك بها . فاذا كان الاسلام هو السبب في عزة القوم ، فان اللغة تكون تبعاً لقوة الاسلام وليس العكس صحيحاً .

4 — مدى تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات أو اللغات الاقليمية في الاقطار الاسلامية غير العربية او لدى الجاليات الاسلامية في الاقطار الغربية أو الآسيوية .

(1) الفكر الاسلامي الصحيح يحتم على المسلمين ان يدرسوا القرآن دراسة عميقة لا يتيسر ذلك الا بدراسة اللغة العربية ، ومتى تعمق المسلم بدراسة اللغة العربية الجيلة يجبها ، فيستعير مفرداتها ويتأثر بطريقة أدائها وأسلوبها .. كل ذلك يرتد اثره في اللهجات المحلية أو اللغة الاقليمية لدى المسلمين في اي مكان .

(2) ربما لا يقف الامر عند هذه الحدود ، قد يتباهى المسلمون بالتحدث باللغة العربية وبالكتابة باللغة العربية — كما حدث ذلك قديماً — أما حديثاً فاني قد عايت ان احياء اسلامية في بخارى حالياً ما زالت حتى الآن تتحدث بالعربية كلفة البيت والام . سمعت هذا الخبر اخيراً من المستعرب السوفييتي الاستاذ غريغوري شارباتوف في محاضرة القاها في جامعة دمشق في 19 — 3 — 1968 .

5 — تأثير لهجتنا الاقليمية في تعابيرنا العربية المحلية في بلاد الشام . نسبها ومداهها .
(1) اللهجة الاقليمية هي العربية العامية الدارجة ، يخالطها امور كثيرة تحرف عن العربية الفصحى نلخصها في الامثلة التالية :

دمج عدة كلمات ونحت كلمة واحدة : شلونك — شو لونك — شي هو لونك — معناها كيف حالك .

ابدال حرف بحرف : تلفظ القاف كالمهمزة ..

تغيير ترتيب الحروف : زوج تلفظ جوز .

اهمال ضبط اواخر الكلمات ، والخطأ في ضبط بعضها الآخر (مثلاً واو الجمع والف التثنية ليس لهما مكان في العامية) .

استعارة مفردات اجنبية : تركية ، فارسية ، امرنسية ، ايطالية ، انكليزية .. ولا تلفظ هذه المفردات صحيحاً كالاصل .

وغير ذلك كثير .

(2) ليس للهجة الاقليمية تأثير على اللغة العربية، بل العكس هو الصحيح كلما اقبل الناس على التعلم وتقوية اللغة العربية الفصحى كلما زالت من لهجتهم المحلية الادران والشواثب التي علقت بها . وانسي لاعتقد ان الاتبال على تعلم اللغة العربية الصحيحة اذا ظل مستمرا بحماس وشغف في جميع البلاد العربية ، فان الفروق في اللهجات الاقليمية ستتضاءل وتتضاءل حتى تختفي . والدليل على ذلك ان المتعلمين في اقصى المشرق وفي اقصى المغرب يتفاهمون حتى ولو تكلموا باللهجة الاقليمية المصقولة بالتعلم ، بينما لا يمكن ان يتفاهم رجل من العامة في المشرق مع اخيه من المستوى نفسه في المغرب .

(3) نسبة العامية في اللغة العربية في بلاد الشام تكاد تكون ضئيلة اذا ما قورنت بالعامية الموجودة في الاقطار العربية الاخرى . ويمكن هنا ان نلفت الانتباه الى ان نسبة العامية في المدن الكبيرة في بلاد الشام نفسها اعلى منها في منطقة البادية وجروران والفرات . وتكاد تكون لهجات بعض القبائل البدوية قريبة من العربية السليمة .

6 — المكانة التي تحتلها العربية في بلدنا بالنسبة للغات الاجنبية .

اللغة العربية في بلاد الشام هي اللغة الرسمية ولغة العلم والكتابة والبيت والطريق ، ولا تستعمل اللغة الاجنبية الا لدراسة المراجع العلمية الاصلية وللتفاهم مع الاجنبي . قد يشذ قليل من الاسر التي تلتقت ثقافة اجنبية اكثر من الثقافة العربية ، فتتحدث في البيت والمجتمع بلغة خليطة ، لكن هذا مجسوج ومستتبع .